معركة مؤتة

مؤتة قرية على مشارف الشام، وهي التي تسمى اليوم: الكرك. وكانت الغزوة في شهر جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة.

وسببها ما ذكرناه من مقتل الحارث بن عمير الأزدي، رسول رسول الله صلّى الله عليه وسلم إلى ملك بصرى، ولم يقتل رسول غيره. فندب الناس للخروج إلى الشام، وسرعان ما اجتمع من المسلمين ثلاثة آلاف مقاتل قد تهيؤوا للخروج إلى مؤتة، ولم يخرج النبي صلّى الله عليه وسلم معهم، وقال لهم: «أمير الناس زيد بن حارثة، فإن قتل فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل فعبد الله بن رواحة، (رواه البخاري) . وأوصاهم أن يدعوهم إلى الإسلام، فإن أجابوا، وإلا استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم» .

ولما خرجوا من المدينة سمع العدو بمسيرهم، فجمعوا لهم: جمع هرقل لهم أكثر من مئة ألف مقاتل من الروم، وجمع شرحبيل بن عمرو مئة ألف مقاتل آخر من القبائل.

وسمع المسلمون بذلك فأقاموا في الطريق ليلتين يفكرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم فنخبره بعدد عدونا. فشجعهم عبد الله بن رواحة وقال لهم: يا قوم، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة. وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة، ولا كثرة، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور أو شهادة.

والتقى المسلمون بأعدائهم قبيل الكرك، فأخذ اللواء زيد بن حارثة فقاتل حتى قتل رضي الله عنه طعنا بالرماح. ثم أخذ اللواء جعفر بن أبي طالب فأبلى بلاء عظيما، وظل يقاتل حتى قتل رضي الله عنه، فوجد في جسمه خمسون طعنة (رواه البخاري). **! .. ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة ولم يزل يقاتل حتى قتل رضي الله عنه. ثم اتفق الناس على إمرة خالد بن الوليد فأخذ اللواء، وقاتل المشركين حتى انهزموا، فانحاز بجيشه حينئذ عائدا إلى المدينة» .**

روى البخاري أن النبي صلّى الله عليه وسلم نعى زيدا وجعفر وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، وعيناه تذرفان حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم» .

حاز خالد المسلمين وبات، ثم أصبح وقد غير هيأة العسكر فجعل الميمنة ميسرة والميسرة ميمنة، ليتوهم العدو أن مددا قد جاء المسلمين. فحمل عليهم خالد فولّوا هاربين فلم يتبعهم ورأى الرجوع بالمسلمين هي الغنيمة الكبرى.

ولما دنوا من المدينة، تلقاهم رسول الله صلّى الله عليه وسلم، ولقيهم الصبيان يسرعون، فقال: خذوا الصبيان فاحملوهم، وأعطوني ابن جعفر!. فأتي بعبد الله فأخذه فحمله بين يديه.. وجعل الناس يصيحون بالجيش: يا فرار، فررتم في سبيل الله.. فيقول رسول الله صلّى الله عليه وسلم: ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله» .

العبر والعظات:

أهم ما يثير الدهشة، في هذه الغزوة، تلك النسبة الكبيرة من الفرق بين عدد المسلمين وعدد مقاتليهم من الروم والمشركين العرب! .. ومعنى ذلك أن عدد المشركين والروم قد بلغوا ما لا يقل عن خمسين ضعفا لعدد المسلمين! .. وهي نسبة كبيرة هذا إلى ما كان قد جهز به جيش الأعداء من العدة والذخيرة والسلاح، على حين أن المسلمين كانوا يعانون من القلة والفقر! ..

ثم إن مكان الدهشة بعد ذلك، أن يصمد المسلمون لقتال هذا اليمّ المتلاطم. يقتل أميرهم الأول، ثم الثاني، فالثالث، وهم يقتحمون أبواب الشهادة في نشوة بالغة وإقبال عجيب، حتى يدخل الرعب الإلهي في أفئدة كثير من المشركين، دون أن يكون له سبب ظاهر، فينكشفون عن مواقعهم ويدبر منهم الكثير، وتقتل منهم خلائق لا تكاد تحصى! .. ولكن الدهشة كلها تزول، والعجب ينتهي، إذا تذكرنا ما يفعله الإيمان بالله، والاعتماد عليه، واليقين بوعده.

فالمسلمون كما قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه لا يقاتلون بعدد ولا قوة، ولا كثرة، وإنما يقاتلون بهذا الدين الذي أكرمهم الله به. ثم إن هذه الغزوة، تنطوي، على عظات ودلالات باهرة كثيرة، نذكر منها ما يلي:

أولا: دلت توصية النبي صلّى الله عليه وسلم، على أنه يجوز للخليفة أو رئيس المسلمين أن يعلق إمارة أحد الناس بشرط وأن يولّي المسلمين عدة أمراء بالترتيب، كما فعل النبي صلّى الله عليه وسلم في تولية زيد ثم جعفر ثم عبد الله بن رواحة.

ثانيا: دلت توصية الرسول صلّى الله عليه وسلم أيضا، على مشروعية اجتهاد المسلمين في اختيار أميرهم، إذا غاب أميرهم، أو وكل إليهم الخليفة اختيار من يرون. كما دلت على مشروعية اجتهاد المسلمين في حياة النبي صلّى الله عليه وسلم.

ثالثا: لقد رأيت أن النبي صلّى الله عليه وسلم نعى لأصحابه زيدا وجعفر وابن رواحة وبينه وبينهم مسافات بعيدة! .. وهي من جملة الخوارق الكثيرة التي أكرم الله بها حبيبه صلّى الله عليه وسلم.

رابعا: الغزوة تسجل فضلا خاصا لخالد بن الوليد رضي الله عنه، فقد قال لهم في آخر حديثه: «حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح عليهم» . وتلك أول وقعة يحضرها خالد في صف المسلمين، إذ لم يكن قد مضى على إسلامه إلا مدة يسيرة. ولقد أبلى رضي الله عنه، في هذه الغزوة بلاء رائعا.

وأما سبب قول الناس للمسلمين بعد رجوعهم إلى المدينة: «يا فرّار، فررتم في سبيل الله» ، فهو أنهم لم يتبعوا الروم ومن معهم في هزيمتهم، ولم يكن ذلك شأنهم في الغزوات الأخرى، واكتفى خالد بذلك فكرّ عائدا إلى المدينة. ولكنه كما رأيت كان تدبيرا حكيما من خالد حفظا للمسلمين وهيبتهم التي انطبعت في أفئدة الروم، ولذلك ردّ النبي صلّى الله عليه وسلم عليهم قائلا: «ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار، إن شاء الله» .